غدامس .. كما كانت

عنوان المقال هو:
غدامس أيام زمان وقام بتغييره رئيس التحرير

بشير قاسم يوشع

كثيرة هي العادات الاجتماعية التي تخلينا عنها حتى نكاد نحن جيل الأربعينات والخمسينات ننساها ، أما ما بعد جيلنا فالقليل منهم سمع عنها ، وقد يتخيلها أساطير أو خرافات من الصعب عليه تصديقها ، وذلك بحكم التطور السريع الذى حدث بمجتمعنا العربي الليبي وقفز بنا من عصر الدواميس والكهوف والمباني الطينية المتواضعة ، إلى عصر عمارات الدور العاشر والدارات الجميلة التي تحيط بها حدائق غنّاء ، من الغذاء المتكون من « الأسودان » : (التمر والماء) ، وأحياناً الحليب ولحوم الظباء والأرانب ، إلى أطايب المآكل والمشروبات المقتبسة من أنحاء الدنيا بأسرها ، من بدلتى الشتاء والصيف إلى أنواع من البدل العربية والأوروبية والهندية وغيرها ، حتى ضاع معها « الجرد والجبة والزبون والصدرية والبرنوس » ولم نعد نراها إلا في أضيق نطاق .

لقد كانت المدينة عندنا عدداً قليلا من الشوارع والأزقة والميادين والأسواق ، وعدداً أقل من المساجد والكتاتيب القرآنية والمدارس والمعاهد العلمية ، بما في ذلك مدينتا طرابلس وبنغازى ، فالمواطن بمدننا يعرف كل شارع وزقاق بمدينته ، بل وكل أسرة ، وعدد أفرادها ، ذكوراً كانوا أو اناثاً ، وقد يعرف تركيبهم الاجتماعي ، ويعرف أن فلاناً هو أخ لفلان من الرضاعة ، وأن تلك العائلة انحدرت أصلا من الأندلس ، أو من عسقلان ، أو من كانوا أو تنبكتو ، وقد تكون من دارفور أو سكتو أو كتنقا ، أنصارية هى وصلت من مراكش أو فاس ، أو حسينية تنتمى إلى على بن أبي طالب ، أو أنها جعفرية تنتمى إلى جعفر الطيار . ويعرف الذين يدّعون الانتساب إلى الحميريين أو السبئيين ، وبقايا الأتراك وتوابعهم من الأرمن والشركس .. جميعهم اخوة ، وحد بينهم الوطن والدين ، كل هذه التفاصيل وغيرها كانت من البديهيات المسجلة في أدمغة أغلب المواطنين خاصة الذين تجاوزوا الأربعين ، فما تكاد تبدأ الحديث مع أحدهم أو تُعرّفه بنفسك ان كنت من العائدين من المهجر مثلا ، حتى يفتح سجله الفكرى وينشر صفحاته المطوية ، فهو يعرف أباك المستشهد في حرب الطليان ، وجدك الذى سافر إلى نيجيريا ولم يعد ، وجدك للأم الذى أرضعته فلانة ، جدة فلان التي حجت سنة كذا مع فلان ، سلسلة لا تنتهى من المعلومات والتفاصيل المتشعبة .

أما الثقافة فهى حق مشاع ، يتناقله ويتوارثه الجميع بدون زيادة أو نقصان ، حتى الذين لم يذهبوا إلى الكتاب ولم يسمعوا بكلمة ثقافة ، جميعهم يحفظ ماتيسر من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية وأبيات من المتون الفقهية واللغوية ، وينتمى إلى إحدى

الطرق الصوفية ويحفظ أورادها وأذكارها عن ظهر قلب ويرى في مؤسسها المتوفي منذ قرون ، شيخه الذى تجب طاعته واتباع تعاليمه التى لم تصله إلا محرفة ، يعرف مواسم الزراعة والحصاد ، ومتى تختفى الثريا ويطلع نجم سهيل ، مجتمع منغلق ، فراغ فكرى ودوران في فلك ضيق لا يتجاوز أفراده بضعة آلاف في أحسن الظروف . أما القلة النادرة المتعلمة التى لم تخل منها مجتمعاتنا في أى عصر . فهى في صراع مستمر مع الجهل ، ولكنها في النهاية قد يجرفها التيار فتتقوقع فتصبح حليفاً للرجعية والتأخر .

بعد انبلاج ثورة الفاتح من سبتمبر 69 العظيم ، حدث تطور فجائي في كل شيء ، خاصة في التفكير والتعليم ، وزاد الدخل اليومى ، وتبعاً لذلك تغير السكن ، وهجر المواطنون أكواخهم ودواميسهم ومبانيهم الطينية المتهالكة ، وأسسوا لهم مدناً حديثة ، ولكن بدون مراعاة للترابط الاجتماعي القديم ، لقد أذهلتهم نشوة الانتصار على الغاصب فأسرعوا في شراء قطع من الأرض لبناء مساكنهم في أى مكان من المخطط الذى أعدته البلدية ، ومنهم من انتظر دوره في تسلم منزل شعبي قبل أن يدرى في أى مكان يقع هذا المنزل ، وإذا بالجميع ، لا تربطهم بجيرانهم الجدد أى رابطة معهودة قديماً ، الأخ في الشرق ، والأب في الغرب والأخت في الشمال أو الجنوب ، بعد أن كانوا مجتمعين يدورون في نطاق لا يتجاوز كيلو متراً واحداً في أكثر تقدير ، أصبح الأخ والصديق وابن العم لا يعرفون منازل بعضهم ، وإذا عرفوها فهى تقع في مكان بعيد عن حيهم ، فقلّ بهذا التزاور والتقارب ، وإذا بالأبناء لا يعرفون ذويهم ولا يزورونهم إلا في عيد الفطر ، فبعد أن كان يسأل عن الفرد إذا غاب يوماً أو يومين صار لا يسأل عنه ولو غاب الشهر والشهرين .

لذلك أرى أن من الواجب الحفاظ على تراثنا القديم الذى أوشك أن ينسى ، سلبياً كان أم إيجابياً فهو ملك للتاريخ ويجب تسجيله وحفظه للدارسين والباحثين الذين سيسألون مستقبلا كيف كان يعيش مجتمع هذه المدينة المهجورة . واني بهذه الكلمة المتواضعة سأحاول نقل جزء صغير من صورة عرفتها وعشت أيامها في غدامس ، لعلى بذلك أساهم في حفظ جزء قليل من تراثنا الذى أرجو أن تتكاثف الجهود لكتابته وتسجيله كحلقة من تاريخنا .

المنزل :

في الحقيقة لم يجد جديد في غدامس بالتحول من المنزل القديم إلى المنزل الجديد الذى يطلقون عليه (دوبلاكس) إذا استثنينا شبكة المياه وتغيير نمط البناء ، فالمنزل المهجور يتكون من طابقين إذا لم أقل ثلاثة بالاضافة إلى الدور الأرضى . ومن مميزاته الفريدة إمكان اتصال النساء المباشر بجيرانهن وأقاربهن من على الجدران العلوية ، بل وقضاء حوائجهن العارضة كشراء الضروريات بدون ما حاجة إلى الخروج للشارع من البائعات المتجولات في الجدران . وهناك ميزة لا تقل عن هذه أهمية ، وهى ظهور المدينة ككل وكأنها مكيفة مركزياً ، دفء في الشتاء وبرودة في الصيف ، وذلك بفضل فنها المعمارى المتميز والمواد المحلية المستعملة في البناء .

ان المنزل يتكون غالباً من سقيفة طويلة وحجرتين في السقيفة تخصصان لخزن الزيت ومعجون التمور والحطب ، ثم درجات مسقوفة في جانبها باب المرحاض ، ثم البهو الذى يعتبر صالة استقبال تحيط بجوانبه الثلاثة حجرات وخزائن ثابتة ، أما الجهة الرابعة فهى صدر البهو ، ترسم على جداره من أعلى بعض الرسوم والنقوش المحلية . تقابلها درجات توصل لسطح المنزل الذى هو

مكان النوم صيفاً ، وبه يوجد المطبخ .

صورة مبسطة من الحياة اليومية :

المواطنون الذين كانوا تجاراً وأغنياء ، ويأنفون من الأعمال الزراعية والحرفية ، تحولوا كلهم اضطراراً إلى الزراعة ، يزاحــم بعضهم بعضاً في رقعة أرض ضيقة ، لا تكفي لمزارع واحد . يوجد بالمدينة عدد قليل من المتاجر المتواضعة يجلب أربابها بضائعهم من طرابلس وتونس ، الحرازون والخياطون قد يتجاوز عددهم العشرة ، أما الحدادون والصاغة والخبازون والنجارون فلا تجد أكثر من واحد لكل حرفة ، توجد بعض أنوال لصناعة الجرود والزرابي وغيرها ، يعمل عليها النساء ، كما تخصص بعضهن لزخرفة المنازل وصناعة الأطباق السعفية ، وكذلك الرجال لهم دور يذكر في صناعة الخوص وليف النخل .

الأسواق توجد بها في أكثر الأحيان الضروريات، الشعانبة يبيعون الغزلان التي يصطادونها من الصحراء ويأتون بها في الأحمال بعد أن يزيلوا عنها الأحشاء، ويبيعون أيضاً لحوم بقر الوحش والودّان ، وقد يبيعونها مجفّفة خاصة في فصل الصيف ، كما أنهم يجلبون الحطب الجيد والفحم بواسطة الجمال ، أما الغدامسيون فيجلبون الحطب بواسطة الحمير ، وهناك ميادين خاصة تعتبر محطات للحطابين ، كما أن بعض الأطفال وطبقة من النساء يجلبون الحطب على رؤوسهم من مسافة قريبة ، وقد يوجد في الأسواق الضّباب والأورال والترفاس والشرشمان (1) وغيرها ...

أهالي تونين اشتهروا ببيع الملح والميلوس (2) والصناعات الليفية والخوصية وجلب الحطب ، كما اشتهر أهالي سيناون ببيع القدور الطينية الجيدة ، أما درج فكانت تزود غدامس بالفلفل الحار والعنب والتفاح ، وأهم وأبرز جالبي التموين لغدامس هم أهالي الجبل الغربي ، فهؤلاء يجلبون القمح والشعير والسمن والزيت ، والتين والزيتون اليابس ، بالاضافة إلى الأغنام ، خاصة عندما يقرب عيد الأضحى ، وأكثر هذه الحاجيات تقايض بالتمر الأسود (المَدْغيوا) الذي هو العمود الفقري لاقتصاد غدامس إذ ذاك وربما حتى الآن ، ان هذه الصورة يتخللها دائماً الدلالون الذين يجوبون الشوارع والأسواق طوال اليوم وبأيديهم أو على أكتافهم البضاعة التي يبيعونها ، حلي من الذهب أوالفضة، جرود ، برانيس ، لباس السودان ، مخطوطات حبات من التمر الجيد كعينة لنخلة كاملة يراد بيع انتاجها . أما الزى السائد والغالب فهو الزى التونسي والليبي والافريقي ، وقد تجد الجزائرى والمغربي ، بالاضافة إلى الزى الطوارقي الذى لا يرتديه سواهم : كما أنهم ينفردون بالسكن في أكواخ خارج السور الغربي .

التعاون الرجالي :

ان مجتمع غدامس منذ فاتح القرن العشرين هو مجتمع منحدر من الغنى الفاحش إلى الفقر المدقع ، نتيجة نجاح بريطانيا في تحويل تجارة أفريقيا إلى الأطلسي ، وقد كان طريقها عبر ليبيا . وغدامس كانت إحدى طرقها ومراكزها الرئيسية الحيوية بالاضافة إلى مهارة

1 – نوع من السحال تعيش فى الرمل ، تصاد بمراقبتها فاذا شوهدت تقفز لتغوص فى الرمل أخذت بعد الغوص فى الرمل والذ فاس هو الكمأ .

2 – ألواح حجرية تقطع من مكأنها وتسوى وتدق ناعما وتبيض بها المنازل وهى أكثر بياضا من الجير .

أهلها في تعاطى تلك التجارة (3) ، زيادة على الضرائب المجحفة التى فرضتها بريطانيا على البضائع التى تصل إلى السودان عبر الصحراء ، وزاد الطين بلة كما يقولون الاحتلال الايطالى لهذه الديار . فتوالت الضربات ، وفقر غدامس الطبيعى الذى يستحيل معه الحياة بدون تجارة مع أفريقيا عجل بانحسار وانزواء هذه المدينة ، إذ رحل أغلب أهاليها إلى تونس أو طرابلس وغيرها ، وانقطعت الصلة بمن بقى بغرب ووسط أفريقيا ، ولم يبق بالمدينة سوى من لا حول له ولا قوة ، وهؤلاء بالضرورة تكاتفوا حول بعضهم إذ لم يجدوا مناصاً من التعاون في كل شيء قلّ أو جلّ ، وقد يكون لتعاونهم جذور أعمق في التاريخ ، ولكنى أكاد أجزم أنه ازداد متانة بعد توالى هذه الأزمات ، خصوصاً التعاون النسائي الذى سأركز عليه هنا . إن التراجع المادى في المقام الأول هو الذى رسم الصورة الكئيبة المرسومة سابقاً لهذه المدينة التى كانت فيما مضى تعج بالحياة الغنية المترفة .

ان أغلب الأعمال الصعبة تتم بالتعاون الجماعى وبدون مقابل بدءا من بناء المنزل وما يلزمه من احضار مواد البناء وحرق الجبس والطلاء ، وبناء أسوار المزارع وحرثها ، وانشاء أو ترميم المساجد والزوايا واعداد أماكن التجمع ، والاعداد للأعراس ، وكنس الشوارع ورشها بالماء صيفاً ، واطفاء الحرائق، والإعلام، وتجهيز الميت ودفنه الخ ..

التعاون النسائي :

مهما بدا تعاون الرجال وثيقاً ومجدياً وضرورياً للحياة القاسية في هذه الديار ، فتعاون النساء على تفاهته اعتبره من الناحية الانسانية أجدى وأعمق لشموله أحياناً لما لا يخطر على بال .

الأرملة التى ترك لها زوجها المتوفي أطفالا بدون مصدر رزق ثابت ، والعجوز التى لا أبناء لها ، المرأة التى غاب عنها زوجها غيبة بعد وانقطاع (4) العانس(5) التى لااخوة لها ولا أقارب ، كل هذه الفئات وغيرها تكون مشكلا يصعب حله في المجتمعات الفقيرة كمجتمع غدامس بعد أن نضب منها ذهب أفريقيا الغربية ، ولكن بفضل التعاون والتماسك النسائي في الدرجة الأولى مر كل شيء بسلام بفضل الأسلوب الفريد الذى عولجت به ، قد تحصل المرأة من هذه الفئات بعد كد وتعب على قليل من الدقيق مثلا ، ولا شيء غير هذا فما يفعل قليل من الدقيق لثلاثة أو أربعة أفواه مفتوحة ، ولكن من العرف السائد أن تأخذ هذه المرأة دقيقها وتعطيه لجارتها الطيبة أو قريبتها الموسرة قائلة : خذى هذا الدقيق واخلطيه مع دقيقك ، فتأخذه منها وتخلطه مع دقيقها في قدر واحد ، ثم تبعث لصاحبته بازيناً (6)

---

3 – انظر ليبيا أثناء العهد العثمانى الثانى ، فرنشيسكو كورو ، تعريب خليفة التليسى ص 84

4 – فى هذه الفترة بالذات يغيب بعض الا زواج العشرة والعشرين سنة ويتركون زوجاتهم بدون عائل ، والمرأة فى غدامس تفضل الموت على رفع دعوى ضد زوجها .

5 – العانس عادة لا تختلط بالنساء الا لماما ولذا لا تستطيع أن تسل مثلهن لتمول نفسها الا فى أضيق الحدود ، ويقال ان الغدامسى فى الماضى اذا فات ابنته قطار الزواج يختار أحد أصدقائه ويواجهه بقوله (انى أهديت لك) فيضطر الصديق للزواج من هذه البنت ولو لاسبوع ليخرجها بذلك من العنس.

6 – البازين هو أكلة شعبية يتخذ من دقيق الشعير ويؤكل مع أنواع من المرق الغنية جدا .

بما يحتاج من المرق . وإذا كان الدقيق من القمح ، تقول لها اخبزى لى هذا الدقيق مع خبزك وابعثى لى معه قليلا من المرق ، فتأخذ الدقيق وتعجنه لوحده وتخبزه مع عجينها في تنور (7) واحد ثم تسلمه لها ومعه ما يكفيها من المرق ، وقد لا تطلب منها مرقاً إذا كانت تستطيع اعداده ، أو أن الخبز لا تريده للعشاء بل لفطور الصبح . أما اعطيني شيئاً من الطماطم أو الفلفل أو الزيت أو غيره فهذا شيء مشاع بين نساء الأسر الفقيرة ، وقد يقع التبادل بينهن،خذى هذا الفلفل واعطيني بدله قليلا من الطماطم أو العكس ، أو أقرضيني كيلة من الزيت إلى الغد أو إلى أن يفتح الله ، وقد تسلفها أو تعطيها ما طلبت مجاناً وتقول لها انه ليس بسلفة وقد آخذ منك شيئاً في يوم آخر إذا توفر لديك .

قد توجد امرأة موسرة لم تتعود على العمل ، ولا بنات لها ، أو أنها عاجزة لكبر سنها أو مرضها ، فالأمر لايهم كثيراً ، تنادى ابنة الجيران لتنظف البيت وتعجن وتخبز وتعد البازين ، وقد تجلب الماء أيضاً من الساقية في الصباح الباكر ، أما بقية الخدمات ففي استطاعة العجوز القيام بها كطبخ المرق مثلا ، وهذا كله بدون مقابل يذكر ، تكفى دعوة صالحة ان كانت أسرة البنت موسرة ، أو يسير من أى شيء ان كانت فقيرة . انه مجتمع سادت فيه اشتراكية الأشعريين تلقائياً في كل شيء ، عود الثقاب الواحد قد يكفى حيّاً بكامله ، فمن

المارسات اليومية العادية أن تطلب المرأة من جارتها عود الثقاب ، أو تأخذ رأس سعفة (جريدة) لتذهب من على الجدران العلوية للأسطح لأقرب منزل أوقد ناراً لتشعل منه هذه السعفة لتعود سريعاً إلى منزلها لتوقد بدورها نارها ، وقد تأخذ عوض السعفة قطعة فخار بها قليل من الرماد لتطلب من جارتها جمرة لتوقد بها ، وبعض النساء لا ينقطع الوقود من منازلهن وذلك بتعهده باضافة قليل مما يذكيه باستمرار استعدادا لبذله لكل طالبة

بعض العجائز وسيلتهن في ذلك ايقاد مصابيحهن من مصباح المسجد في الصباح الباكر ، ومن المألوف وأنت تسير بعد المغرب أو بعد العشاء أو بعد صلاة الفجر في الأزقة المظلمة أن تشاهد امرأة وبيدها شعلة مطفأة أى غير ملتهبة وهى تحوها برفق إلى اليمين والشمال وذلك لتنير لها الطريق كما يُمسك بالمصباح الكهربائي اليدوى الذى جلبه لنا الأوروبيون فيما بعد وللأول ميزته وهو ما تفعله هذه المرأة خاصة بعد الفجر إذ منه توقد نارها في منزلها ، وهذا أكثر من يستعمله العجائز . وعند العودة إلى البيت وقضاء حاجتها منها تطفئها في وعاء خاص لتستعملها مرة أو مرات أخرى . وهى عادة تُعمل من عراجين النخل القديمة .

أما الرجال فيستعملون للاضاءة مصباحاً زجاجياً ، وهو عبارة عن طاقة زجاجية لها مقبض من فوق وباب من أحد الجوانب ، تثبت في وسطه شمعة ، وهذا من الكماليات التي لايطالها إلا الموسرون ، أما البقية فيمشون في الظلام ، ولتعودهم على ذلك فإنهم لا يخطئون طريقهم إلا نادراً . وفي بعض الأماكن كانت البلدية قبل الاحتلال الايطالى توقد المصابيح المذكورة ، ولكن من حجم كبير ، وبعد الاحتلال الايطالى استبدلت البلدية بها مصابيح « الكيروسين » المعروفة وعممتها في أكثر الشوارع الرئيسية ، وبالغاء البلدية بعد الاحتلال الفرنسى أهملت

7 – وقود التنور في غدامس بعد الخبز يردم فيه المليوس أو الجبس وبعد شوائه يدق ناعما ويباع كيلا ، وبهذا فهو يشكل دخلا للعائلة ، وفي الشتاء تستغل تلك النار للتدفئة وذلك بوضعها في أوعية خاصة ثم توضع في حجرات النوم .

انارة الشوارع ، كما أهمل تنظيفها ، ولكن الفرنسيين أعادوا انارة الشوارع على نطاق ضيق جداً بواسطة المصابيح الكهربائية في أواخر أيامهم .

الصابون كان من الكماليات التى لا تتيسر إلا لقليل من فئات الشعب ، أما الباقون فصابونهم هو الطين الخزفي ، وهو في الحقيقة يشبه الصابون إلى حد كبير ، وعيبه الوحيد أنه يحيل البياض إلى اصفرار ، وهذا الطين إلى الآن يستعمل في غدامس في غسيل الشعر وهو كما يقول بعضهم أفضل من (الشامبو) ، وهناك الطين الأبيض الأحرش والرطب ، كل له دوره في الغسيل ، وقد كانوا يصنعون الصابون محلياً من الرماد وشوائب الزيت التى ترسب في الحوابي .

المقايضة :

البقالون قل من يشترى منهم بالعملة ، فبالمقايضة يتم تبادل المنافع واشباع الحاجات الضرورية ، في الخريف بالتمر يشترى الفقراء لوازمهم ، أما في موسم الحصاد فبالحبوب ، القمح والشعير ، وحتى بالقصب والقافولى والبيض والمصنوعات اليدوية كالأطباق والمراوح وعقود وأساور العقيق والحبال والقفاف ، بل بنوى التمر الذى هو في بعض الأحيان أعز من التمر نفسه ، وذلك للاستفادة منه في علف الحيوانات ودباغة القرب وفي سنوات الحرب عملت به القهوة .

بهذه السياسة قلت الدراهم التى هى في الحقيقة ليس لها وجود إلا في أيدى الموظفين وهم قلة ، وحتى هؤلاء يزودهم المقصف الحكومى بشىء من الضروريات يخصم ثمنها من رواتبهم .

من الأمور المألوفة أن يأتي طفل إلى بقال ومعه بيضة أو بيضتان قائلا : خذ هاتين البيضتين وسآتي لك ببيضة أخرى بعد أن تبيضها دجاجتنا بعد العصر واعطنى زيتاً أو شاياً وسكراً أو غير ذلك ، والبقال لا يمانع . فالطفل سيحضر البيضة في الموعد المحدد بدون شك . أصبحت العملة أيام الحرب الثانية في غدامس فاقدة لمعناها ، أصبح الأجير يفاوض رب العمل قبل البدء في العمل في أن أجرته هى الشعير أو القمح وأحياناً حتى التمر ، رأيت الموسرين الذين يعيشون من ايجارات أملاكهم بطرابلس أو تونس يستجدون المزارعين أن يبيعوا لهم شيئاً من محاصيلهم القليلة ، ورأيت بعض الفقراء الذين قبلوا اضطراراً أن يعملوا بالنقود يطوفون على البقالين يلحّون عليهم أن يبيعوا لهم ما يسدون به رمقهم ، فلا يجدون من يسعفهم ، وربما باتوا على الطوى .